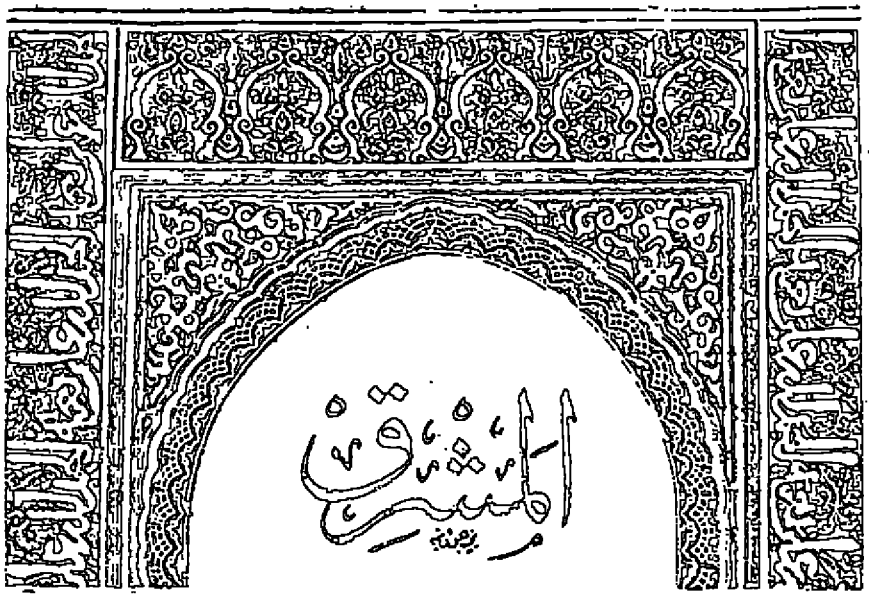

تموز ١٩٣١

اسرة القديس يوحنا الدمشقي

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في ١٨ و١٩ نيسان الفائت ، احتفل احتفالاً باهرًا بتدشين عيد جديد على اسم القديس يوحنا الدمشقي ، اقامه الآباء اليسوعيون في المحل الذي كان يسكنه القديس في دمشق . فرأينا ان نورد شيئاً عن اسرة ذاك القديس العظيم الذي يعد بحق عنوان فخر ومجد في الكنيسة الشرقية .

في الايام الاولى من شهر اذار سنة ٦٣٥ ، وصل العرب بقيادة خالد ابن الوليد الى ابواب دمشق ، فبدأوا حصارها . وضيّقوا عليها مدة ستة اشهر ، حتى ايلول من السنة نفسها . وكانت الحامية البيزنطية من جنود الامبراطور هرقل قد تركت المدينة هاربة في شهر آب . فلم يبقَ للدمشقيين الا العمل على مصالحة المحاصرين .

فاوفد المسيحيون للمخابرة بالصلح اسقف دمشق ، يعاونه رجل اسمه

منصور بن سرجون كان ، دون شك ، اوجه سكان المدينة[1] ؛ وكان سلفاؤه يتطاولون ، منذ امد مديد ، في مناصب الادارة لاسيما المالية منها . وكان منصور نفسه يدير الشؤون المالية في دمشق منذ اواخر سني الامبراطور موريس (٥٨٢–٦٠٢) . وقد زعم فون كريمر انه من اصل يوناني ، ولكنه لم يدعم زعمه بالبراهين ؛ ومن الظاهر ان اسمه لا يؤيد هذا الزعم ، فهو عربي النصف ، سرياني النصف الآخر . اما ما يمكننا تأكيده فهو ان منصور بن سرجون كان من اقدم أسر دمشق ، وانه كان يستحق لقب « المسيحي كلّ المسيحي » الذي ينعته به المؤرخ اليوناني تيوفانوس . ولم يكن منصور هذا الّا جدّ اللاهوتي الشهير القديس يوحنا الدمشقي[2] .

وقد آيد منصور وطنيته بذهابه ، مع الاسقف ، لمخابرة العرب الماجين على المدينة ، والتداول معهم بشأن الصلح . ساعده في ذلك اطلاعه الواسع على لغة العرب وعاداتهم ، ومعرفته حالة مدينته وسكانها معرفة لم يكن ليجاريه فيها احد ؛ فكان افضل من يوفد لمثل تلك المهمة الدقيقة . واذ بدأت المناقشات في شروط التسليم ، اظهر منصور كل مقدرته واستعان بجميع مواهبه ليخفف عن عاتق وطنيه مبلغ الغرامات المالية . وقد نجح في ذلك كل النجاح .

ولا شك انه ، في تلك المناسبة ، قابل ، للمرة الاولى ، يزيد اخا معاوية الخليفة المقبل ، الذي كان من مشاهير قوّاد العرب اذ ذاك . فأثرت في يزيد كل التأثير مهارة منصور وبلاغته ، وخصوصاً تضلّعه من الشؤون المالية . فلم يعيّن والياً على منطقة دمشق حتى سلّمه ادارة الاموال . على ان يزيد لم يهنأ طويلاً بولايته فمات

---

١) في ما خصّ مآخذ هذا المقال ، نحيل قرّاءنا الكرام الى كتابنا في « معاوية » : « *Etudes sur le règne du calife omaiade Mo'âwia I, Beyrouth, 1908* » الصفحات ٢٥٩ ، ٢٨٤–٢٩٦

٢) كان احد منازله قائماً في بستان القطّ . راجع ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوطة المكتبة الظاهرية) ٧ : ٢٨ – والمجلة الاسيوية *Journal asiatique, 1896, 1° partie p. 576.*

بالطاعون بعد سنة ، وخلفه اخوه معاوية . فاقرّ منصوراً بمنصبه ، واستفاد من مهارته التي سرعان ما اعادت النظام في الشؤون المالية وقد كانت تضعضعت طبعاً على اثر الفتح .

وعندما عُيّن معاوية والياً على بلاد الشام بكاملها ، وسّع صلاحية منصور حتى شملت جميع منطقته . ولما كان معاوية نفسه متحدّراً من اسرة اشتهرت بالتجارة والمعاملات النقدية ، كان يدرك حق الادراك اهمية الادارة المالية ويقدر مهارة ماليّه منصور وذكاءه حق قدرهما . وزاد في ذلك انه كان بحاجة دائمة مستمرّة الى المال لتحقيق مشاريعه العظيمة التي بدأ بالتفكير بها منذ ذاك الحين. ولم يكن ليجد بين رجاله من العرب من يقدر على القيام مقام الدمشقي ، ولا مقام غيره من وطنيه . ولهذا ظلّ جميع اصحاب المناصب من المسيحيين في مراكزهم ، وظلّت اللغة اليونانية وحدها لغة دوائر ديوان الدولة . ولم يلبث معاوية ان عيّن منصوراً مديراً لديوان الجبايات وحساب الجيش . فكان كأنه عيّنه وزير المالية والحربية ، وهما الادارتان الوحيدتان اللتان اهتمّ بهما العرب . ولم يكن غير منصور ليفهم طريقة تنظيم تلك الدوائر المتشعبة ، فكان عليه ان يسهر على جباية الضرائب ، واعالة الجيوش ، وترتيب ذخائرها وعُددها المختلفة ، وبناء السفن وتهيئة الاسطول ، عندما شاء معاوية مباشرة الحرب البحرية في الاسلام. وعندما بويع لمعاوية بالخلافة ، سنة ٦٦٠ ، غدا منصور ، وهو المطّلع على جميع المفاوضات ، الواقف على اسرار الدولة ، الوزيرَ الاول في السلطنة العربية . فاصبح لا مدير المالية السورية فحسب ، بل وزير مالية الخلافة باسرها يهتمّ بتموين الجيوش البرية والبحرية .

وما زال في ذاك المنصب المهمّ حتى آخر حياته . وقد كان في زمن الشيخوخة ، اذ اولاه معاوية ثقته . ولكن ليس لدينا ما يدلّ على انه ادرك آخر خلافته التي طالت حتى سنة ٦٨٠ . وعند وفاة منصور خلفه ابنه لا في وظيفته فحسب ، بل في ثقة الخليفة ايضاً . وقد برهن معاوية عن هذه الثقة برهاناً جلياً ، اذ شعر بدنوّ اجله ، في غياب ابنه يزيد عن الشام وكان قد سمّاه ولي عهده ، فشاء ان يعيّن مجلس وصاية يدير شؤون الدولة بعد وفاته حتى وصول

ابنه يزيد ، فألف المجلس وجعل فيه ، مع عضوين مسلمين ، وزيره الاول وخادمه الامين ابن منصور الدمشقي النصراني.

اما علاقة الخليفة يزيد بابن منصور فلم تكن جديدة ، لانهما كانا قد نشأا معاً وتربيا معاً . واذ كان يزيد لا يزال ولي عهد ، كثيراً ما كان يهرب من رسميات قصر الخضراء مبتعداً عن نظر ابيه القاسي ، فيلجأ الى منزل الدمشقي الكائن في بستان القطّ والذي كانت ساحته الواسعة تجاور السور جنب باب كيسان . فكان يلتقي هناك بصديقه الاخطل ، الشاعر الكبير ، فيلهوان مع ابن منصور ، ويشتفون الآذان بسماع الموسيقى الراقية ، ويرتشفون من أكواب الذهب خمر لبنان الذهبي. فلا عجب ان يكون يزيد ، وقد اصبح خليفة ، وضع كل ثقته بوزير اليوم وصديق الامس ، فادرك هذا نفوذاً كبيراً لم ينقطع الا بما فاجأ الخلافة من وفاة يزيد ، في تشرين الثاني سنة ٦٨٣.

بعد وفاة يزيد ساد عصر الفوضى. اذ بويع بالخلافة لمعاوية الثاني، وكان قليل الصحة مستديم العلة ، فعيّن ثلاثة يشرفون على الادارة ، ومن هؤلاء الثلاثة كان ابن منصور الدمشقي. ثم تنزّل الخليفة عن العرش ؛ فبويع مروان الاول الذي ملك عشرة اشهر قضاها بالحروب قائماً الثورات ليستعيد الشام ومصر . ومن الواضح ان النفوذ الاكبر في تلك الحالة كان لرؤساء الجيش . على ان الدمشقي احتفظ بمركزه وتأثيره ، لاننا نراه لا يزال في وزارة المالية حتى آخر خلافة عبد الملك بن مروان (تشرين الاول ٧٠٥) .

وكان قد اخذ بعض التغيّر يدخل عقلية الخلفاء ، منذئذٍ ، فمالوا الى « تعريب » جميع اداراتهم ، وقوي تعصب الفاتحين العنصري والديني حتى اصبح مما لا يُطاق ان يحكم الدولة رجل مسيحي . فاخذوا بادخال اللغة العربية ديوان الحسابات ، حتى رقي الوليد العرش ، وهو من كبار المتطرّفين بالوطنية ، فانتزع من ابن منصور الدمشقي ادارة المالية ووزارة الدولة ، وعيّن مكانه رجلاً عربياً من اتباعه ومريديه.

وكان يترعرع اذ ذاك ، في بيت الدمشقي ، ولده يوحنا الذي كان له ان يخلّد اسم اسرته ، وان يصبح مظهر مجد وفخر للكنيسة الشرقية. على اننا لا

نعرف تاريخ مولده ، كما اننا لا نعلم شيئاً يُذكر عن حوادث شبابه ، سوى انه أنشئ تنشئة ممتازة ، فتعلم على مشاهير علماء عصره ، واتقن منذ يفاعته جميع العلوم والفنون الدينية والمدنية حتى الموسيقى . وتضلّع من اللغات الثلاث : الارامية ، التي كانت لغته الاصلية دون شك ، واليونانية ، والعربية . وان تآليفه تشهد له خير شهادة بتضلعه من العربية . اما تاريخ وفاته فلا يمكننا تحديده بتدقيق ، ونحن نعلم انه لم يعش حتى ما بعد السنة ٧٥٣ ، بل نرجح انه توفي نحو السنة ٧٤٨ ٧٤٩.

تبع يوحنا في اول عهده مهنة اسلافه في ادارة الشؤون المالية ، مستفيداً من اختبارات ابيه ونصائحه ؛ فحذا حذوه في ذاك المنصب حتى خلافة هشام (٧٢٤—٧٤٣) ، فاستعفى ، واعتزل الاعمال . وما هي مدة قصيرة حتى ودّع العالم وانصرف الى الروحيات ، مختلياً في دير القديس سابا نواحي القدس . وهناك اخذ باتمام تلك المؤلفات النفيسة التي جعلت من القديس يوحنا الدمشقي اغزر كتّاب الشرق ، على تنوّع مؤلفاته من فلسفة الى لاهوت ، الى شعر ، الى خطابة ، الى تاريخ .

وبعد وفاته ، لا نعرف احداً اشتهر من تلك الاسرة الشريفة التي اخرجت ، مدة ثلاثة ارباع القرن ، افضل الوزراء للدولة العربية .